رحلة الدويرة الأسطورية

الطفل الحكيم





الجزء
الأول

رحلة الدويرة الأسطورية



الجزء الأول: الطفل الحكيم

إهداء:

إلى الله أول، الحمد والشكر والمنة،

وإلى أمي الحبيبة على قلبي، حفظها الله ورعاها ورزقها الصحة وطول العمر،

ثم وإلى أبي الغالي، رحمه الله وجعل مثواه الجنة،

اللذين كانا سرّ ذهابي إلى جدّي في الريف الشمالي لبلادي المغرب حفظها الله من كل سوء،

المكان العزيز علي حيث وُلدت البذرة لهذه النشأة التاريخية.



مقدمة: حكاية تبدأ بصمت.

في قرية لا تراها الخرائط،

حيث لا تصل السيارات إلا في الصيف،

وحيث تتنفس الأرض بحرية،

كان هناك بيت من طينٍ،

وسط حوشٍ عامر بالأشجار والنباتات،

كأنه كتابٌ مفتوح على البرية.

كان اسم هذا البيت " الدويرة "

وكان اسم بطل قصتنا " سفيان "

كل صيف، كان سفيان يركض من المدينة إلى الدويرة،

يحمل حقيبته الصغيرة، وعينين تلمعان من الفرح.

ليس لأنه سيَلعب، أو يرى أصدقاءه،

بل لأنه سيقابل " الغرسة ".

لكن لم تكن الغرسة مجرد حديقة،

كانت " معلما صامتا "،

يُعلم دون كلمات،

ويربي دون ضجيج.

ومن تحت شجرة ليمون تُزهر في غير أوانـها،

تتربع في مكانـها وسط ساحة قلب الدويرة،

ومن بين أوراق العنب والتين والرمان،

بدأت حكاية صغيرة،

لكنـها عظيمة:

حكاية طفل تعلم من التراب

ومن الظل،

ومن صمت الجد وحكمته رحمه الله،

كيف يرى العالم " بروحه قبل عينيه ".

...



** الفصل الأول: الدويرة – مخيم الطفولة وسر الجذور **

في الدويرة، لم تكن هناك كهرباء، ولا صخب، ولا منبهات.
كانت الحياة تبدأ مع أول صياح ديك،
وتنتهي مع أول نجمة في السماء.

كان البيت من طين، بسيط، دافئ بالحب.
وفي وسط الحوش، شجرة ليمون قديمة،
تزهر في غير أوانها،
كأنها ترفض أن تخضع نفسها للزمن.

كان سفيان يجلس تحتها، ينظر إلى السماء من بين الأوراق،
ويتساءل:
هل السماء زرقاء لأن شجرة الليمون أبيض؟
أم العكس.

حوله غرسة عامرة:
عنب يتدلى، تين ينضج ببطء، رمان يخبئ كنوزه،
وخضار تنمو كأنها تهمس للرياح،
كل شيء هنا كان ينموا، ويتنفس، يعلم.

لم تكن هذه الأرض مجرد مكان للزراعة،

بل مدرسة لا تعطي شهادات،

كل شيء هنا كان ينمو، يتنفّس، يُعلّم.

لم تكن هذه الأرض مجرد مكان للزراعة،

بل مدرسة لا تُعطي شهادات،

لكنها تُخرّج أشخاصًا يعرفون معنى "الانتظار"، و"الرعاية"، و "أن كل شيء له وقته."

وكان سفيان، الطفل القادم من المدينة،

يشعر وكأنه يعود.

كأن شيئًا في دمه يتذكّر.

لأن الدويرة لم تكن مجرد مكان.

كانت **بذرة.**

بذرة وُضعت في تربة صامتة،

لكنها تحمل كل ضجيج الحياة في داخلها.

وكانت تعرف أنها لن تتوقف.

...



الفصل الثاني: ظلّ الجدّ — كلام موزون في فم الحكمة

لم يكن للجدّ كرسيٌ فقط، بل كان له **ظلّ**.

ظلّ طويل، يمتدّ على التراب مع المغيب،
كأنه يكتب على الأرض حروفًا لا يراها إلا من يعرف كيف ينظر.

كان سفيان يجلس تحت هذا الظلّ،
ليس ليتّقي الشمس،
بل ليتّقي **الجهل**.

لأن الجدّ لم يكن يُعلّم كما يُعلّم المدرس.
لا سبورة، لا قلم، لا دفتر.
لكن عنده **الزَّجل**.

كل ليلة، مع أول نجمة تظهر،
كان يُخرج من صدره شيئًا لا يُرى، لكنه يُسمع، ويُشعر، ويُخزّن في القلب كأنه عسلٌ في قِرص.

> "يا ولدي، الحياة ماشي سهلة،
> ولا كل اللي يمشي في الدرب يوصل للقمة،
> لكن اللي يمشي بقلب صافي،
> حتى لو تعثّر، رجْلُه ما تهوي في الظُّلَمة."

كان سفيان يُنصت، لا يفهم كل الكلمات، لكنه **يشعر** بها.
كأنها نغمة من ناي، أو ريح تمرّ في شجرة.

وكان الجدّ يقول:

> "الزجل، يا بني، ما هو مجرد غناء.
> هو كلام الأرض، مُرتّب.
> مثلما تزرع البذرة في التراب بترتيب،
> كذلك الكلمة الموزونة، إذا وقعت في القلب، تُنبت حكمة."

ومن تلك الليالي،
بدأ سفيان يفهم:
أن الجدّ لم يكن فقط يُعلّمه كلمات،
بل كان يُعطيه **مفتاحًا**.

مفتاحًا لعالمٍ لا يُرى بالعين،

لكن يُرى بالقلب.



الفصل الثالث: الغرسة العامرة — بين عنبٍ وتينٍ ورمان

لم تكن الغرسة مجرد حديقة.
كانت **كتابًا مفتوحًا على الأرض**،
لا يُقرأ بالعين، بل باللمس، بالرائحة، بالصمت.

العنب علّمه أن **الحلم يحتاج صبرًا يوميًا**.
وإذا نسيته يومًا، يُخبرك في الموسم التالي بصمته.

التين علّمه أن **السرّ قد يكمن تحت براءة الظاهر**.
فالثمرة قد تبدو خضراء من برا،
لكنها حمراء من الداخل، كأن قلبها كان يخفق في السرّ.

أما الرمان، فكان **لغزًا**.

شجرته قوية، لكنها تُثمر ثمارًا كأنها كنوز مدفونة.
وكان جدّه يقول:

> "الرمان ما يُحسب.
> هو بياخدك في رحلة،
> وكل حبة فيها قصة."

وأدرك سفيان أن الرمان يُعلّمه سرّ الحياة:
أن الجمال الحقيقي لا يظهر من أول نظرة،
وأن الخير الكثير قد يختبئ تحت قشرة صلبة.

وحتى النباتات الصغيرة: النعناع، القزبرة، المعدنوس،
كانت تُعلّمه أن **القيمة لا تُقاس بالحجم**.
فأقوى رائحة في الشاي، تأتي من ورقة نعناع صغيرة.

وكان جدي يقول:

> "الغرسة، يا سفيان، ما هي مكان للزراعة.
> هي مكان للتعلّم.
> واللي يفهمها، ما يصيرش فلاحًا فقط،
> يصير فَيْلَسُوف."



الفصل الرابع: رفيقٌ على أربع — صديق القلب في دويرة الريح

في أول ليلة لسفيان في الدويرة،
خرج إلى الحوش ليُشاهد النجوم،
وفجأة، ظهر ظلّ أسود من بين شجرة التين،
ليس بهجوم، بل بهدوء، كأنه يقول: "أنا هنا، لا تخف."

كان الكلب، "حمو"،
حارس الدويرة،
رفيق اللعب والأحلام،
شاهدًا على عزلة الطفل وبهجته معًا.

لم يكن ينبح على كل صوت،
لكن كان يختار لحظاته،
كأنه يفهم أن **الصمت أحيانًا أقوى من العواء**.

وكان سفيان يشعر معه بشيء نادر: **الأمان بدون

كلام**.

إذا كان حزينًا، يضع رأسه على ركبته.
وإذا خاف من صوت الريح، يلتف حوله، دافئًا، كغطاء من صوف لا يُرى.

ذات مرة، سأل جده:

"لماذا لا ينبح كثيرًا؟"

فأجاب:

> "لأنه ما ينبحش على اللي ما يهمّش.
> الكلب الذكي، يا بني، ما يحرسش بالصوت،
> يحرس بالوجود."

ومن تلك اللحظة، بدأ سفيان يرى الكلب ليس كحيوان،
بل كـ**رفيق**.

علّمه أن **الصداقة لا تحتاج كلمات**،
وأن **الوفاء لا يُشترط عليه شرط**،

وأن **الطمأنينة قد تأتي على أربع أرجل، وقلب واحد كبير**.

وكان جدي يقول:

> **"الكلب، يا سفيان، ما هو حيوان.**
>
> **هو جزء من البيت.**
>
> **من الروح.**
>
> **من الذاكرة.**
>
> **واللي ما عرفش قيمة كلبه، ما عرفش قيمة وطنه."**


6

الفصل الخامس: صوت الدجاج والماعز — موسيقى الطبيعة العفوية

لم تكن الدويرة تُستيقظ بالمنبه،
بل بـ**صوت الديك**.

> "يا نهار، افتح عينيك!
> يا شمس، خرجي من ودنيك!"

ثم تليه الدجاجات، كل واحدة لها دورها،
كأنها فرقة موسيقية لا تُدرس في معهد،
لكنها تُولد بداخلها نغمة خاصة.

والماعز؟
كل واحدة لها لهجتها، نبرتها، طريقة نداءها.

واحدة تنادي صغارها بنغمة حزينة:

> "مِييييي..."

وأخرى تُنذر:

> "مِي! مِي!"

وكان جدي يقول:

> "اسماع الصوت، يا بني، ما هو فقط سمع.

> هو فهم.

> فالديك ما يناديش من أجل الصوت،

> ينادي عشان يُذكّر."

وبدأ سفيان يُسمّي هذا كله: **"زجل الحيوانات"**.

لأنه، مثل الزجل الذي يُلقيه جده،

ليس عبثًا،

بل موزون،

له بداية، له نهاية، له معنى.

وكان كل صباح،

ليس بداية يوم،

بل **بداية أغنية،**

تُغنى منذ الأزل،

ولا تنتهي أبدًا.



الفصل السادس: أحلام الخربشة — حين تحوّل الرسم إلى لغة

لم تكن عنده ورقة، ولا أقلام ألوان باهية.
لكن كان لديه **إصبعه**، والتُّراب، والخيال.

رسم على التراب:

شجرة، بيتًا، رجلًا عجوزًا، كلبًا ينبح نحو السماء.

انتهى، نظر إلى رسمه، ثم — **مسحه بقدمه**.

سألته الخالة زهرى:
"لماذا مسحته؟ لم تُرِدْ أن نراه؟"

فأجاب:
"لا حاجة.
كفايَ أنني رأيته."

لم تكن الخربشة عنده وسيلة لإبهار،

بل **وسيلة لفهم**.

وكان جدي يقول:

> "الإنسان، يا بني، يُولد بثلاث لغات:

> الكلام،

> الصمت،

> والرسم.

> واللي ما يستعملش الثلاث، ما يكملش."

وبدأ سفيان يرسم **الظلال**،

ظلّ الشجرة، ظلّ الكلب، ظلّ جده على الحائط.

وكان يشعر أن في الظلّ شيئًا أعمق من الشكل.

أنه يحكي عن **الغياب، والصمت، والذكرى**.

ومن تلك الخربشات،

ولد حبه للصورة،

وبدأ يرى العالم كلوحة مفتوحة.



الفصل السابع: العدسة البكر — الكاميرا كعين ثالثة

لم تكن الكاميرا أول شيء اشتراه سفيان.
كانت **أول شيء حلم به**.

في المدينة، رأى صبيًا يُصوّر، فسأل:
"ما هذا؟"

فقال: "كاميرا. تسجّل اللحظة."
فقال سفيان في سره: "أريد أن أُمسك اللحظة."

اشترى كاميرا قديمة بثلاثين درهمًا،
حملها كأنه يحمل طفلًا نائمًا.

في الصباح، بدأ يُصوّر:

- قطعة خبز يغطّيها النمل.
- ظلّ جده على الحائط.
- ورقة تين تسقط ببطء.

لم يكن يفهم التقنية، لكنه **شعر**.

شعر أن الكاميرا ليست آلة،
بل **عين ثالثة**.
عين لا ترى فقط،
بل **تُصغي**.

وكان جدي يقول:

> "الصورة، يا بني، مثل الزجل.
> لها وزن.
> لها إيقاع.
> واللي ما يحترم اللحظة، ما يقدرش يُمسكها."

وبدأ سفيان يرى العالم بشكل آخر.
الضوء لم يعد مجرد نهار،
صار له لون، له حركة، له صوت.

وكان كل لقطة عنده **وعدًا**:

"سأذكرك.

سأحملك معي.

أنت لم تختفِ، بل بقيت في عين ثالثة."



الخاتمة: حين تنتهي الحكاية يبدأ الأفق

سافر سفيان راجعا منزل والديه من الدويرة إلى طنجة،
من الريف إلى المدينة،

من الزجل إلى الراب،
من الرسم إلى السينما.

لكن في قلبه،
ظلّ هناك مكان صغير،
يشغله بيت من طين،
وشجرة ليمون،
وجدّ يُلقّن الحكمة بهمس،
وكلب يحرس الأحلام.

وكان يعلم شيئًا واحدًا:

أن كل ما أصبح عليه،
بدأ من لحظة واحدة،
في مكان بسيط لا يراه العالم.
من الدويرة.

ففي تلك الأشجار،

لم تكن الثمار هي المهمة،

بل **السرّ الذي تُخبّئه في صمت.**

وكان كل فصل في هذه الحكاية،

ليس نهاية،

بل **بداية طريق.**

طريق لا عودة فيه.

ومن هنا،

تبدأ **الرحلة الحقيقية.**

> ** "حين تنتهي الحكاية، يبدأ الأفق.
لأن النـهاية ليست إلا فاتحة الطريق." **

📖فهرس قصة "رحلة الدويرة الأسطورية"

25- 🐓 الفصل الخامس : صوت الدجاج والماعز – موسيقى الطبيعة العفوية

(زجل الحيوانات، لغة الأصوات، إيقاع الصباح)

29- ✍️ الفصل السادس : أحلام الخربشة – حين تحوّل الرسم إلى لغة

(الرسم كوسيلة لفهم العالم، الظلال، الصمت والذاكرة)

32- 📷 الفصل السابع : العدسة البكر – الكاميرا كعين ثالثة

(الميلاد الفني، التصوير كزجل جديد، العين الثالثة للملاحظة والإحساس)

36- 🌅 الخاتمة : حين تنتهي الحكاية يبدأ الأفق

(النهاية كبداية، من الدويرة إلى العالم، الرحلة الحقيقية تبدأ الآن)







قصة أسطورية للأطفال - الكاتب القصصي ؛ سفيان المصباحي